المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مقالات | 26 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2023

عن مفهوم المجتمع الدولي وخيبته المريرة في غزة

محمد حمشي

عن مفهوم المجتمع الدولي وخيبته المريرة في غزة

سلسلة: مقالات

26 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2023

محمد حمشي

باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة - قطر. عمل سابقًا أستاذًا في العلاقات الدولية، قسم العلوم السياسية في جامعة أم البواقي في الجزائر. حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة باتنة في الجزائر. نشر العديد من الدراسات والأوراق البحثية باللغتين العربية والإنكليزية في عدد من المجلات العلمية المحكمة.

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2023

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات

شارع الطرفة، منطقة 70، وادي البنات، ص. ب: 10277

الظعاين، قطـر

هاتف: 40354111 974 +

www.dohainstitute.org

المحتويات

مقدمة 1

أولًا: ملاحظة على المصطلح وترجمته إلى العربية 2

ثانيًا: الجماعة الدولية والمجتمع الدولي 2

ثالثًا: من عائلة الدول إلى جماعة الدول 4

رابعًا: الجماعة الدولية بوصفها جماعة الدول الغربية 6

خامسًا: المجتمع الدولي بوصفه دالًّا بلا مدلول 7

خاتمة: وُلد خديجًا وهو يحتضر وقد يدفن في أنقاض غزة؟ 10

مقدمة

يتوسل قادةٌ عربٌ، وغيرهم، بالمجتمع الدولي في سياق ما يسمى المساعي لوقف العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة. وتتردد أيضًا، خاصة في الإفادات اليومية التي يدلي بها مسؤولو القطاع الصحي في غزة، عبارة "تناشد المجتمع الدولي". يمكن المرء أن يفهم ويتفهم مناشدة مسؤولي القطاع الصحي في غزة المجتمعَ الدوليَّ للتدخل، خاصة لحماية المستشفيات والكوادر الطبية وسيارات الإسعاف، وهي حماية في المقام الأول للمرضى والجرحى والأطفال الخُدَّج، فضلًا عن المدنيين النازحين الذين يحتمون بباحات المستشفيات. ولا شك أن في ذلك بعضًا من تحميل المجتمع الدولي، كما يتصوره هؤلاء، مسؤولية أخلاقية عن الفظاعات التي ترتكبها قوات الاحتلال الإسرائيلي.

يمكن المرء أن يفهم ويتفهم أيضًا أن تناشد المنظمات، الحكومية وغير الحكومية، بما في ذلك منظمة الأمم المتحدة، المجتمعَ الدوليَّ بالتدخل؛ فالأمم المتحدة ليست المجتمع الدولي؛ بل هي، كما تعرّف نفسها، "المكانُ الوحيدُ على وجه الأرض الذي يمكن فيه كل دول العالم أن تتجمع معًا وتناقش المشكلات المشتركة وتجد حلولًا مشتركة لصالح البشرية جمعاء". لكن أن تناشد دولٌ المجتمعَ الدولي، وإذا ابتغينا بعض الدقة أن تناشد دولٌ مجتمع الدول التدخلَ، فهذا ما لا يمكن فهمه. وقد بيّنتُ في سياق آخر لِمَ "تعرب الأمم المتحدة عن قلقها" بشأن أزمةٍ ما، فهي حين "تعرب عن قلقها" بشأن الأزمة إنما "تلفت انتباه" مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، والمجتمع الدولي قاطبةً، إليها؛ والأمم المتحدة منظمةٌ لا سلطة لها مستقلةٌ عن الدول الأعضاء؛ لا في اتخاذ القرار، ولا في تنفيذه. أما من يملك سلطة القرار وتنفيذه فهي الدول. لذلك، قلت إن "إعراب الدول عن قلقها"، مثلما يرِد في البيانات العربية الرسمية، لغةٌ غريبةٌ عن خطاب الدولة[1]. وكذلك هي مناشدة الدول المجتمع الدولي؛ لغة غريبة عن خطاب الدولة.

وحين نسمي المجتمع الدولي مجتمع الدول، فليس هذا على سبيل اللعب بالمصطلحات. المجتمع الدولي حرفيًّا هو المجتمع المتشكل من دول، ولا يحيل نعته بالدولي إلى كونه دوليًّا، أي يشمل دول العالم جميعًا، بالمعنى النقيض للوطني أو الإقليمي مثلًا. ويسري ذلك أيضًا على مصطلح النظام الدولي، فليس المقصود به سوى نظام الدول، أي النظام الذي يتشكل من مجموعة من الدول، ولا علاقة له بالنطاق الجغرافي؛ فالنظام الإقليمي، المتشكل من دول إقليمٍ ما، هو أيضًا نظام دولي[2]. سأعود إلى مسألة المصطلح لاحقًا، لكنني وددت إثارتها هنا حتى تتبين المفارقة الكامنة في أن تناشد دول المجتمع الدولي، كأنها ليست منه وليس منها. إن الدول حين تناشد المجتمع الدولي، فهي بذلك تناشد نفسها.

أروم في هذه المقالة مراجعةَ مفهوم المجتمع الدولي مراجعةً نقديةً في سياق العدوان الإسرائيلي الحالي على قطاع غزة. سأقدم ملاحظة على المصطلح وافتقار ترجمته العربية إلى الدقة، فما نسميه المجتمع الدولي هو ما يسمى في اللغات الغربية (الإنكليزية وغيرها) الجماعة الدولية، حتى في أدبيات الأمم المتحدة. ثم أميّز بين مفهومَي الجماعة والمجتمع. بعد ذلك، أتعقب جذور مصطلح الجماعة الدولية في مصطلح آخر أقدم منه، هو "عائلة الدول". ثم أبني على ذلك، لأبيّن أن الجماعة الدولية ليست سوى جماعة الدول الغربية. وأخيرًا، أعود إلى مصطلح المجتمع الدولي لأحاجّ بأنه دالٌّ بلا مدلول ثابت، يمكننا من خلاله تحديد توقعاتنا ممن يتكلمون عنه أو يتصرفون باسمه؛ لأخلص في الخاتمة إلى أن النظام الدولي لا يزال حبيس حالة الجماعة وبعيدًا عن حالة المجتمع، ويُخشى أن موقف الولايات المتحدة الأميركية وحليفاتها الغربية وسلوكها، في سياق العدوان الإسرائيلي على غزة، إنما يهدد الجماعة الدولية نفسها بالنكوص والتقهقر نحو حالة أشد ما قبل حداثيةً، هي "عائلة الدول".

---

1 لنقارنْ بين لغة البيانات الرسمية الصادرة عن دول غربية بلغة البيانات الرسمية العربية، كي نلاحظ أن الأولى عبّرت عن موقف واضح وحاسم لا يقبل التأويل، داعم ومؤيد لدولة الاحتلال الاسرائيلي، ويدين عملية طوفان الأقصى، في حين خلت الأخيرة من أي تعبير عن أي موقف يعتد به.

2 سك جيريمي بينثام مصطلح International مع نهاية القرن الثامن عشر، للتمييز بين القانون الوطني والقانون الدولي الذي جرت العادة آنذاك على تسميته قانون الأمم Law of Nations. ولمّا كانت الدولة حينها مرادفةً للأمة Nation، غير أن المقصود به حرفيًّا "ما بين دول" Inter-State.

أولًا: ملاحظة على المصطلح وترجمته إلى العربية

أحيانًا، يغدو من الصعب إعادة النظر في ترجماتنا العربية لبعض المصطلحات، خاصة حين تصير راسخة؛ والمقولة الرائجة، "خطأ مشهور خير من صواب مهجور"، تعكس هذه الصعوبة. هذا أحد التحديات التي تجعل إسهاب المرء في مناقشة المصطلح أمرًا مثيرًا للضجر، حتى عند الطلاب في قاعات الدرس؛ فتتحول الدعوة إلى إعادة النظر في ترجمته، التي ترسخت، إلى صراخ في فلاة. وبديلًا من ذلك، على المرء دائمًا، على الأقل، أن يذكّر بأن الأهم من لفظ المصطلح هو فهم المفهوم منه؛ ففي سياق الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة مثلًا، لا يهم إذا ترجمنا مصطلح Humanitarian Pause إلى العربية "هدنةً إنسانية"، بقدر ما يهم أن نفهم أن المقصود منها توقفٌ مؤقتٌ، لبضع ساعات وفي أماكن محدودة، عن أعمال الحرب، أو ما عبَّرتُ عنه سابقًا بمنح قوات الاحتلال الإسرائيلي فرصة "استراحة قصيرة" قبل التقاط أنفاسها واستئناف أعمالها العدوانية[3]؛ وهذا حرفيًا ما يعنيه لفظ Pause. أما الهدنة، سواء بمعنى Truce أو حتى Armistice، التي تفرض التزامًا بوقف إطلاق النار يتلوه انخراطٌ في مفاوضات سلام فهي شيء آخر. ولذلك شهدنا اعتراض الولايات المتحدة على تعديلٍ روسي في نص قرار مجلس الأمن الصادر في 16 تشرين الثاني/ أكتوبر 2023، يقضي باستبدال عبارة "الهدنات الإنسانية" بمعنى Humanitarian Pauses، كما نص عليه القرار النهائي، بعبارة "هدنة إنسانية" بمعنى Humanitarian Truce. ونعود الآن إلى الموضوع.

نستعمل في اللغة العربية مصطلح "المجتمع الدولي" ترجمةً للمصطلح الإنكليزي International Community؛ لكننا في الوقت نفسه نستعمل مصطلح "الجماعة الأوروبية" ترجمةً للمصطلح الإنكليزي European Community. قلّما ننتبه إلى هذا الفرق. ولفظ Community هو ما اصطلحت عليه الأمم المتحدة ودول العالم عمومًا. وقلمّا تزل الألسن لتذكر لفظ Society عند الحديث عما نعرفه نحن في اللغة العربية بالمجتمع الدولي. ورغم أن حقل التفكير في العلاقات الدولية ثري أيمّا ثراء بالنقاشات الفلسفية والنظرية بشأن ما (ينبغي أن) نعنيه بالمجتمع الدولي والجماعة الدولية، والتمييز بينهما، ورغم أنها انعكست في استقرار الخطاب الغربي على أحدهما، فإننا نادرًا ما نعود إليها؛ لأن الإسهاب في مناقشة المصطلح، مرة أخرى، أمرٌ مثيرٌ للضجر. وبناء عليه، فإنني، اتقاءً لضجر القارئ، لن أسهب في فحص تأريخ المصطلح وجذوره وسياقات استقراره. وينبغي لي أن أنبّه القارئ من البداية إلى أنني أستعمل، في الأجزاء الثلاثة التالية، "الجماعة الدولية" ترجمةً لمصطلح International Community، وأستعمل "المجتمع الدولي" ترجمةً لمصطلح International Society، كما يرد حرفيًّا في الخطاب الغربي. ثم أعود في الجزء الأخير إلى استعمال مصطلح "المجتمع الدولي".

ثانيًا: الجماعة الدولية والمجتمع الدولي

ثمة تمييز راسخ، أي لم يعد محلًا للمَشكَلة، في الفلسفة الاجتماعية والسياسية بين "الجماعة" (Gemeinschaft بالألمانية، Communauté بالفرنسية) و"المجتمع" (Gesellschaft بالألمانية، Société بالفرنسية)[4]. وهذا التمييز مهم في فهم مسوّغات استقرار المصطلح في خطاب السياسة الدولية الغربي على تسمية الرابطة التي

---

3 محمد حمشي، "عن انحطاط النقاش القانوني بشأن مسؤولية حماية المدنيين في غزة"، **مقالات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023/11/5، شوهد في 2023/11/22، في: https://tinyurl.com/3z555hnf

4 Barry Buzan, *From International to World Society? English School Theory and the Social Structure of Globalisation* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), p. 74; Barry Buzan & Ana Gonzalez-Pelaez, "'International Community' after Iraq," *International Affairs*, vol. 81, no. 1 (2005), p. 33.
وينظر أيضًا كتاب فرديناند تونيز الذي يعدّ مرجعًا كلاسيكيًا في الموضوع:
Ferdinand Tönnies, *Community and Society (Gemeinschaft und Gesellschaft)* (New York, NY: Harper and Row, 1963 [1887]).

تشكلت بين الدول جماعةً لا مجتمعًا. ولا ينفي هذا، بطبيعة الحال، تراثًا فلسفيًا ونظريًا عريقًا من النظريات التي تنافح عن فكرة "المجتمع الدولي"، لكن في مقابل "النظام الدولي" على وجه التحديد[5].

ليست الجماعة (الدولية) نقيضًا للمجتمع (الدولي)، لكن إذا أخذنا في الحسبان النظام (الدولي) أيضًا، أمكننا بسهولةٍ تصورُ المفاهيم الثلاثة في شكل طيف، نجد في بدايته الجماعة (الدولية)، وفي نهايته الأخرى النظام (الدولي)؛ وكلما انتقلنا إلى وسط الطيف، اقتربنا من المجتمع (الدولي). لن أتوقف طويلًا عند استنباط مفهوم الرابطة، التي تجمع بين الأفراد، من النظرية الاجتماعية الكلاسيكية وإسقاطه على الرابطة المتشكلة بين الدول؛ وأميّز، استنادًا إلى الأدبيات وعلى سبيل الاختصار، بين المفاهيم الثلاثة على النحو التالي.

تمثل **الجماعة** الرابطة الاجتماعية العضوية (ويسميها عزمي بشارة أيضًا الأهلية)، ما قبل الحديثة، بين الأفراد، وهي تتشكل غالبًا على نطاق أضيق متمثلةً في العشائر والقبائل؛ وإذا استوحينا السياق العربي، اللغوي والاجتماعي، أمكننا إضافة الطوائف أيضًا. أما **المجتمع**، فتتحول فيه الرابطة التي تجمع بين الأفراد إلى شعور جمعي بهوية مشتركة بما تتضمنه من قيم ومعايير وقواعد مشتركة؛ وحين يبلغ الأفراد درجة تذويت هذه الهوية المشتركة[6]، تتحول إلى التزام متبادل بحقوق وواجبات بين أعضاء المجتمع. ولا تتجسد فكرة المجتمع، أي تنتقل من المتخيَّل إلى المادي، إلا من خلال مأسسة تلك الحقوق والواجبات. ووجود مكوّن الهوية ليس قصرًا على حالة المجتمع، فهي مكونٌ رئيس في حالة الجماعة أيضًا. إذ تقوم الأخيرة على علاقات اجتماعية تشكلها هوية وشائجية تنطوي على الشعور بـ "نحن"، الذي تحركه عاطفةٌ وحميمية متجذرة في التشكيلات الاجتماعية العضوية، مثل العائلة والقبيلة والطائفة وغيرها. أما المجتمع فيقوم على علاقات اجتماعية تعاقدية Contractual مبنية على فهوم بينذاتية يشكلها أعضاء المجتمع (ويعيدون تشكيلها) أثناء تفاعلهم ويرسون من خلالها القواعد والمعايير التي تحدد حقوقهم وواجباتهم بعضهم تجاه بعض. بعبارة أخرى، إذا كانت هوية الجماعة معطاة سلفًا Pre-given ومشتركة Common بحكم الطبيعة، فإن هوية المجتمع مبنيةٌ اجتماعيًا Socially Constructed ومتشارَكة Shared بحكم التفاعل والتعاقد بين البشر.

وحين نقول إن الجماعة ليست نقيضًا للمجتمع، فلا يعني ذلك خلو العلاقة بينهما من أي توتر. وحين نتصور الجماعة والمجتمع بوصفهما مرحلتين في سيرورة الرابطة الاجتماعية بين الأفراد، ينبغي أن نفهم أن الجماعة سابقة للمجتمع[7]. ومن منظور جدلي خطي، تمثل الجماعة مرحلة ما قبل حديثة Pre-modern من تلك السيرورة. لكن السيرورة في حد ذاتها ليست خطية على أي حال، "فالانتقال من الجماعة الأهلية إلى المجتمع لا يتم في طريق ذات اتجاه واحد"، ويمكن "أن يرتد المجتمع إلى جماعة"[8]. وتحدث مثل هذه الردة حين تخفق الجماعة، أثناء تحولها إلى مجتمع، في مأسسة الحقوق والواجبات المتبادلة بين أعضائها. والمقصود

---

5 يستحق هذا الموضوع بحثًا مستقلًا. وأكتفي هنا بالقول إن هذا التراث يسمّى "المدرسة الإنكليزية" في العلاقات الدولية، وتسمّى كذلك لا لأن منظريها إنكليز، بل لأنهم كانوا أساتذة في كلية لندن للاقتصاد وجامعة أكسفورد، وجلهم لم يكونوا إنكليزًا، بل إن أبرز المنظرين الإنكليز في فترة تشكل المدرسة كانوا في معسكر المدرسة الواقعية المقابل. وقد تشعبت المدرسة الإنكليزية بين الأطروحات المثالية والبنائية والمؤسساتية في حقل العلاقات الدولية وغيرها.

6 مرة أخرى، أستعمل هنا "المشترك" رغم أنه "خطأ مشهور"، فالمقصود للدقة هو المتشارَك Shared، وليس Common. فالمتشارَك، رغم أنه "صواب مهجور"، يفيد أن الهوية لا توجد هكذا بوصفها معطى مسبقًا، بل يشكّلها الفاعلون الاجتماعيون ويعيدون تشكيلها باستمرار على نحو مشترك بينهم Co-constituted. والمقصود بالفاعلين هنا Agents، أي أن بلوغ حالة الهوية المتشارَكة يقتضي فاعليةً Agency اجتماعيةً وتاريخية؛ وهذا ما يميزها عن حالة الهوية المشتركة، الطبيعية، المعطاة سلفًا، التي تتسم بها الجماعة العضوية أو الأهلية السابقة على المجتمع.

7 هذا التعاقب الخطي نسبيٌّ بطبيعة الحال؛ إذ من الصعب الاستدلال من التاريخ الاجتماعي على وجود شكل نقي للجماعة أو المجتمع. لذلك، فإن المحاجَّة بوجود تعاقب زمني بينهما غرضها تحليلي صرف.

8 ينظر: عزمي بشارة، **المجتمع المدني: دراسة نقدية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017 [1996])، ص 254. وهذا خلاف ما ذهب إليه، مثلًا، كريستوفر ويلر الذي تجنب على نحو واضح الخوض في مسألة أي منهما يسبق الآخر، ويبدو أنه اختار التسليم بأن العلاقة بينهما علاقة "معقدة" و"غير محددة". ينظر:

Christopher Weller, "Collective Identities in World Society," in: Mathias Albert, Lothar Brock & Klaus Dieter Wolf (eds.), *Civilizing World Politics: Society and Community beyond the State* (Lanham: Rowman and Littlefield, 2000), pp. 45 - 68.

بالمأسسة هنا إيجاد الآليات التي تعزز القواعد والمعايير والمؤسسات التي تيسر التعايش المشترك ودرجة من النظام Order بين أعضاء المجتمع[9]. ولنا أن نسقط كل ذلك على مجتمع الدول.

في حالة العلاقات الدولية، يأتي في نهاية الطيف الأخرى، في مقابل الجماعة وبعيدًا عن المجتمع، **النظام** الدولي. يعبّر النظام System عن بنية مستقرة من الانتظامات في التفاعلات بين الأفراد؛ وحجرُ الزاوية في تعريف النظام الدولي ليس بنيته الفوضوية Anarchic التي يجري فيها التفاعل بين الدول فحسب، بل أيضًا سمتُها الواقعية (نسبةً إلى المدرسة الواقعية) التي تجعل التفاعلات بين الدول تتحدد من خلال الاختلافات في قوتها المادية. وهكذا تصير السياسة الدولية من هذا المنظور هي سياسة القوة Power Politics؛ وإذا كان للقواعد والمعايير والمؤسسات (والأخلاق أيضًا) أي دور في تشكيل سلوك الدول، فإن القوة هي التي تحدده وتحده. ونحن في غنى عن التذكير بأن هذا المنظور الواقعي لا يزال مهيمنًا، على النظرية والممارسة، رغم التاريخ الطويل من النظريات النقدية التي بنت برنامجها البحثي برمته على نقد الواقعية.

تطورت فكرة "المجتمع الدولي"، كما أشرنا آنفا، في سياق تراث فلسفي ونظري يقابل بينه وبين "النظام الدولي". ولأن فوضوية النظام الدولي باتت مسلمة، سك هادلي بول ومن اهتدى بهديه، مصطلح "المجتمع الفوضوي"؛ دلالة على إمكانية تشكل حالة المجتمع حتى في ظل نظام دولي فوضوي يفتقر إلى سلطة عالمية عليا تُنفِذ النظام والقانون على غرار ما تفعله الدولة في نطاق سلطتها الداخلي. وحجة هؤلاء أن الدول حين تتفاعل فيما بينها لا تشكل نظامًا دوليًا يقتصر على ديناميات القوة المادية، إنها تشكل مجتمعًا تحكمه معايير بموجبها يقبل أعضاء المجتمع بمسؤولية مشتركة، ولو محدودة، بعضهم تجاه بعض من ناحية، وتجاه المجتمع ككل. وتترجَم هذه المسؤولية، تاريخيًا، في ممارسات القانون الدولي والدبلوماسية التقليديين. لا ينكر هذا المنظور سعي الدول الثابت لتحقيق مصالحها الذاتية، لكنّ تَشكُّل حالة المجتمع على مستوى دولي يجعل الدول تمتنع عن السعي لتحقيق مصالحها الذاتية بأي ثمن؛ فهنا، يصبح المجتمع الدولي في خطر. وهكذا، في حين لا يمكن إلا التسليم بأن الدول تتفاعل وتدافع عن مصالحها في ظل الفوضى Anarchy، فإن تدافعها نحو مصالحها يجري ضمن "مجتمع فوضوي"، تتصرف فيه الدول ضمن نظام من المعايير المقيِّدة لسلوكها، تنشئها الدول نفسُها[10] وتُلزِم بها نفسها أولًا، ويلزم بها بعضها بعضًا ثانيًا. هذا هو المجتمع الدولي بما هو مجتمع، وبما هو غير الجماعة الدولية وغير النظام الدولي.

ثالثًا: من عائلة الدول إلى جماعة الدول

السؤال الآن: ما الذي يعبّر عنه استقرارُ الخطاب الغربي على مصطلح الجماعة الدولية بدلًا من المجتمع الدولي؟ ينبغي ألا نُسلِّم بأن المسألة لغوية بحتة؛ فمع منتصف القرن العشرين، حلّت الجماعة الدولية محل عبارة أخرى كانت شائعة منذ القرن التاسع عشر؛ هي "عائلة الأمم" Family of Nations، أو للدقة عائلة الدول[11]. وقد تزامن التحول من عائلة الدول إلى جماعة الدول مع حركة تصفية الاستعمار؛ وكانت الدلالة، حرفيًا، أن الدول الجديدة، المعترف بها دولًا، إنما تنضم إلى عائلة الدول الأعضاء أصلًا في هذه العائلة، وانضمامُها يعني أنها تتفاعل مع الدول السباقة إلى تأسيس العائلة النواة وفقًا لمعايير السلوك التي وضعها ويتشاركها أعضاءُ العائلة الأكبر سنًا. في هذا السياق، علينا أن نتذكر أن ملوك الدول - الأمم الأوروبية حينها كانوا في كثير من الحالات أقارب

9 Buzan & Gonzalez-Pelaez, p. 33.

10 Chris Brown & Kirsten Ainley, *Understanding International Relations*, 3rd ed. (New York: Palgrave Macmillan, 2005 [1997]), pp. 50 - 51.

11 ينظر الهامش 2.

تجمعهم رابطة الدم. كان من الطبيعي أن يُستعمل لفظ العائلة، ليس استعارةً فحسب، كما يذهب إليه البعض إذا كان المقصود بالاستعارة استعمال لفظ محل لفظ آخر تعبيرًا عن الشبه بينهما؛ بل إن استعمال لفظ العائلة كان تعبيرًا عن إيمان قوي بفكرة أن الدول التي أسست العائلة النواة تجمعها رابطة وشائجية لا تقتصر على قرابة الدم بين ملوكها فحسب، بل إنها تتقمص روح العائلة وتلبس لبوسها، فيعامل بعضُها بعضًا وتعامل من لا ينتمي إليها بناءً على ما يمليه الإيمان بفكرة العائلة. إنها ليست فكرة أو مفهومًا، بل ممارسة وسلوك أيضًا.

لم يختف مصطلح عائلة الدول من التداول إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ وقد شكلت عصبة الأمم (وهي عمليًا "عصبة دول") نموذجه الأقصى، فقد حرم ميثاقُها المستعمراتِ من عضويتها، بل إنه أضفى المزيد من الشرعية على المزيد من الاستعمار من خلال الحماية والانتداب. يبيّن هَرالد كلاينشميت الحلقة المفرغة التي أُنتِج فيها مفهوم "الجماعة الدولية" بين منظري القانون الدولي، قائلًا إنهم افترضوا أن إنشاء قواعد القانون الدولي والقبول بها وإنفاذَها يقتضي وجود "جماعة دولية قانونية"، فعرّفوا "الجماعة الدولية" بوصفها "عائلة الدول" التي كان الخطاب قد استقر عليها؛ ثم رأوا أن الإرادة والقدرة على وضع قواعد القانون الدولي وقبولها وإنفاذها يشكلّان المعيار الوحيد لقبول الدول في "عائلة الدول" بوصفها "الجماعة الدولية"، فكان لا بد من منع الدول غير الأعضاء من المشاركة في عمليات وضع قواعد القانون الدولي والقبول بها وإنفاذها[12]؛ ما يعني، بالنتيجة، منعها من العضوية نفسها.

وإن المرء ليستغرب الحفاوة التي استُقبِلت بها بعض (وليس كل) أفكار جون رولز، رغم أنه في هذا السياق لم يفعل شيئًا سوى إعادة إنتاج مفهوم قريب من "عائلة الدول"، وإن ذهب إلى التركيز على الشعوب بدلًا من الدول، وسماه "مجتمع الشعوب". لا يتجلى التشابه بين "المجتمع" و"العائلة" لدى رولز في تمييزه بين المجتمعات الليبرالية وغير الليبرالية، فهذا يمكن التغاضي عنه رغم أنه يشبه التمييز بين المجتمعات المتحضرة وغير المتحضرة؛ بل يتجلى في وصفه المجتمعات غير الليبرالية، التي يقع على كاهل المجتمعات الليبرالية عبءُ إدراجها في مجتمع الشعوب، بالمجتمعات "اللائقة" Decent. تُرجم هذا النعت إلى العربية من دون روية بالمجتمعات السمحة[13]. يعني هذا اللفظ بالإنكليزية "السمح" وما يشبهه، لكنه يُستعمل أيضًا: 1. نعتًا لمن يستوفي في سلوكه وأسلوب حياته معايير اللياقة Propriety أو الذوق السليم Good Tasteأو الأخلاق Morality؛ أو 2. نعتًا لمن يطابق سلوكُه معاييرَ المجتمع الأخلاقية التي يقرها ويرضى بها معظم الناس؛ أو 3. نعتًا للسلوك الصالح بما يكفي لينال رضى المجتمع[14]. وقد ذكر رولز هذا صراحة من البداية: "أستخدم مصطلح 'لائق' لوصف المجتمعات غير الليبرالية التي تستوفي مؤسساتُها الأساسية شروطًا معينة محددة للحق والعدالة السياسيين"[15]. وهكذا، ينتج مفهوم مجتمع الشعوب، لدى رولز، حدودًا؛ ويفرض معايير تحدد من ينتمي ومن لا ينتمي، وتميز بين من يستحق ومن لا يستحق "تسامح" المجتمعات الليبرالية. والتسامح مصطلحه هو.

---

12 Harald Kleinschmidt, "The Family of Nations as an Element of the Ideology of Colonialism," *Journal of the History of International Law*, vol. 18 (2016), pp. 278–316.

13 ينظر مثلًا: جون رولز، **قانون الشعوب**، ترجمة محمد خليل (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2007). وينظر في مقابل ذلك ترجمة عزمي بشارة له بالمجتمعات "المتمتعة باللياقة"، في: عزمي بشارة، **مسألة الدولة: أطروحة في الفلسفة والنظرية والسياقات** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023)، ص 303.

14 ينظر تعريفات لفظ decent في معاجم اللغة الإنكليزية التالية:
"decent," *The Oxford English Dictionary*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/2s4dz9yh; "decent," *merriam-webster*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/2sshzfxd; "decent," *collinsdictionary*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/mpz88z4y; "decent," *ldoceonline*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/y57r592w "decent," *ahdictionary*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/5n6btu68; "decent," *dictionary.cambridge*, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/22hnv76u

15 ينظر: رولز، ص 26، هامش 2؛ وفي النسخة الإنكليزية:
John Rawls, *The Law of Peoples* (Cambridge: Harvard University Press 1999), p. 3, footnote 2.

العائلة والجماعة صنوان. وقد مرّ علينا تعريف الجماعة بوصفها رابطة وشائجية غير تعاقدية بين أعضائها تتشكل على نُطُق ضيقة مثل العشائر والقبائل والطوائف. وقياسًا على المجتمع، بالمفهوم الذي سقناه في هذه المقالة، تنتمي الجماعة إلى حقبةٍ ما قبل حديثة، تسبق تشكّل العقد الاجتماعي الذي يؤسس لحقوق الأفراد وواجباتهم، بصرف النظر عن انتمائهم العضوي. توفر الجماعة لأفرادها، مثلها مثل العائلة والقبيلة والعشيرة وغيرها، شبكة مكثفة من روابط الرعاية والتكافل والتضامن والمودة وغيرها مما يترتب على ما أشرنا إليه من هوية وشائجية تنطوي على شعور حميمي بوجود "نحن" واحدة متحدة بحكم الانتماء العضوي. في ظل الجماعة، يشعر الفرد بالأمان والرعاية والحماية من دون الوفاء بشروط يقتضيها نظام الحقوق والواجبات الذي يقوم عليه المجتمع الحديث؛ وفي الوقت نفسه، يشعر بقية الأفراد ضمن الجماعة الواحدة بواجبٍ (وشائجي، عاطفي، عصبي) يدفعهم دفعًا لنصرة من يشاركهم الانتماء، بلا قيد أو شرط أو حسابات عقلانية. وقد تتبنى العائلة أبناءً غير أبنائها البيولوجيين، وقد تسمح القبيلة لعائلات ليست من نسبها بالإقامة على أراضيها، لكن ذلك لا يغيّر من عصبيتها شيئًا.

رابعًا: الجماعة الدولية بوصفها جماعة الدول الغربية

تحيل جماعةُ الدول الغربيةُ إلى نفسها بوصفها جماعة دولية، وعلى هذا النحو تتصرف. ويطول الحديث عن التصنيفات الغربية العديدة التي فرضت بها الجماعة الدولية، بهذا المعنى، حدودًا واضحةً لاستبعاد مجتمعات "غير لائقة" "لا تستحق التسامح"، على حد تعبير رولز. ولم يكن الخطاب أداة الاستبعاد الوحيدة، بل كانت الممارسة أيضًا، بالعقوبات وبالحصار وبالنار. لكن العدوان الإسرائيلي الحالي على غزة وبقية فلسطين أبان عن وجه قبيح آخر لروح الجماعة هذه.

حين تعرضت أوكرانيا لغزو روسي، تضامنت جماعةُ الدول الغربيةُ وحشد بعضُها بعضًا لتأييد حق أوكرانيا في الدفاع عن نفسها ضد "الغزو" و"الإرهاب" الروسي. وحظيت أوكرانيا بالتأييد بالوفود والنقود والبارود. وفُرضت على روسيا عقوبات، وأي عقوبات[16]، وعُزلت دوليًا. لكن حين يقاوم الفلسطينيون "الاحتلال" و"الإرهاب" الإسرائيلي، لا يجدون من الجماعة سوى الإدانة، بل تأييد حق إسرائيل المطلق في الدفاع عن نفسها، حتى ولو كان ثمنه إبادة الفلسطينيين، وليس "ترهيبهم" فحسب. يسمى هذا ازدواجية في المعايير. لكن ما يفسر ذلك لا يقتصر على ازدواجية المعايير؛ إنها روح الجماعة ما قبل الحديثة.

تساند جماعةُ الدول الغربيةُ أوكرانيا، وتسمي الحربَ الروسية غزوًا والحربَ الأوكرانية دفاعًا عن النفس، لأن أوكرانيا تشبهها، وتنتمي إليها (أليست عضوًا محتملًا في الاتحاد الأوروبي!)؛ في حين تسمي الحربَ الإسرائيليةَ دفاعًا عن النفس والمقاومةَ الفلسطينية إرهابًا، لأن إسرائيل تشبهها، وتنتمي إليها (أليست الديمقراطيةَ الوحيدة في المنطقة!). وهنا، تطل الجماعة بوجهها القبيح: ما تفعله أوكرانيا دفاعٌ عن النفس لأنها منّا وتقاتل أعداءنا، وما تفعله المقاومة الفلسطينية إرهابٌ لأنها ليست منا وتقاتل حلفاءنا، ولإسرائيل الحق المطلق غير المشروط في الدفاع عن نفسها، لأنها منَّا ونحن منها.

ليس ذلك فحسب، بل إنّ علينا واجبَ أن نقف إلى جانبها قولًا وفعلًا، وأن نتحدث لغتها ونردد أكاذيبها، وأن ندافع عنها، وأن نؤيدها بكل ما أوتينا من وسيلة من دون أن ننتظر منها أي التزام أخلاقي، وأن نضمن لها حصانة من مساءلة الآخرين عن جرائمها، وأن نتعهد بالرعاية رغبتها في الانتقام، وأن نغض الطرف عن جرائمها

---

16 ألم تشمل العقوبات حتى الحيوانات الروسية؟ في آذار/ مارس 2022، أصدرت ما يسمى "رابطة الأمم المتحدة لاتحادات القطط" The United Nations of Cat Federations بيانًا يعبر عن "الصدمة والرعب" من الغزو الروسي لأوكرانيا، ثم يذكر أن مسؤولي الرابطة لا يمكنهم "البقاء مكتوفي الأيدي ومشاهدة تلك الفظائع"، فقرروا "حظر مشاركة القطط الروسية في المنافسات" التي تنظمها الرابطة. ينظر:
"International Cat Federation Bans Russian Cats from Competitions," *The Washington Post*, 3/3/2022, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/cnvc29b9

حتى إن كانت على حساب معايير وأخلاق وأعراف ليس هذا وقتها؛ فحين يتعرض أحد ممن ينتمي إلينا ("نحن") للإذلال على أيدي من لا ينتمي إلينا ("هم")، علينا أن نتصرف جماعةً، ثأرًا له، وثأرًا للجماعة نفسها. ليس الثأر مجازًا هنا. فقد وصف بشارة العدوان الإسرائيلي الحالي على غزة بالعمل "الثأر[ي] القَبَلي الشامل من الشعب الفلسطيني" برمته[17]، لأن القبيلة إذا طلبت الثأر لقتيلها ولم تتمكن من القاتل، طلبته من أقاربه؛ فإذا استقوت، طلبته من قبيلة القاتل برمتها.

على هذا النحو، تصبح جماعةُ الدول الغربيةُ جماعةً متخيَّلةً بمفهوم بندكت أندرسون[18]، لكن كونها متخيلةً لا يعني أنها غير قائمة، أو أن تحديدها، بحدود تميّز "نحن" مِن "هم"، ليس له أثر يتنزل من المتخيَّل إلى الواقع. فالمتخيَّل دائمًا، "يطور قوى ومصالحَ حقيقية"؛ والجماعة المتخيلة "تتضمن ما هو أكثر من الحدود التي تفصلها عن غيرها [أي تفصل 'نحن' فيها عن 'هم' في غيرها]، إنها تشمل تضامنًا وعلاقاتٍ متبادلةً وتواصلاً بين الوحدات المكونة لها"[19]. نستخدم هنا وصف الجماعة على سبيل الاستعارة، تعبيرًا عن علاقة التضامن وتعاضد بين الدول الغربية وإسرائيل، والتي تذكر باستعادة القبيلة؛ لكننا نشدد، مع ذلك، على أن معناها الاستعاري لا يحجب كونها قائمةً ولا تنتج حدودًا فحسب، بل تنتج أيضًا سياسةً وأفعالًا. في سياق نقد بشارة لأطروحة روبرت كوبر[20] عن عوالم النظام الدولي الثلاثة، ما قبل الحديث والحديث وما بعد الحديث، ينبّه إلى تهافت القول إن الدول المتطورة في أوروبا والولايات المتحدة انتقلت إلى ما بعد الحداثة، فضلًا عن "غروره" و"فوقيته الغربية التي لا تطاق". يقول بشارة:

"بلغة الفلسفة السياسية التي لا أعتقد أن السياسيين يكترثون لها، خلافًا لأوهام أساتذتها، إذا كان سلوك الحكومات الأوروبية داخل الاتحاد كانطيًا بحسب ما يزعم كوبر، فإنه خارج الاتحاد بقي مكيافيليًا. والحقيقة أن [...] صعود اليمين الشعبوي في بعضها ورهاب الأجانب والإسلاموفوبيا، يكشف عن وجهٍ آخر لـ 'ما بعد الحداثة' هذه، إضافةً إلى أن بعض دول الاتحاد الأوروبي كان مشاركًا أساسيًا في الحرب على أفغانستان والعراق. ويتعايش الساسة الأوروبيون مع المعايير المزدوجة؛ إذ يعترفون بقوانين وأعراف تنظّم علاقاتهم في أوروبا، لكنها غير نافذة تجاه الخارج؛ إذ لا توجد معايير في العلاقة مع الآخرين، حيث يمكن أن تسود القوة والحرب الاستباقية والنفاق والخداع"[21].

وتلك روح الجماعة الوشائجية القبلية ما قبل الحديثة، التي يكشف سلوكُ جماعة الدول الغربية مع إسرائيل في مقابل سلوكها مع الفلسطينيين الحُجُب عنها على نحو سافر؛ الحنوُّ على من هم منها والعتوُّ على من هم ليسوا منها.

خامسًا: المجتمع الدولي بوصفه دالًّا بلا مدلول

على هذا النحو، يمكن رصد مظاهر ردة المجتمع الدولي International Society، مثلما كان البعض ممن وُسِموا بالمثاليين يُنظّرون له، نحو جماعة دولية International Community ما قبل حديثة، من دون رابطة تعاقدية بين أعضائها، ومن دون مأسسةٍ للحقوق والواجبات المتبادلة بينهم، وهما شرطا حالة المجتمع.

---

17 عزمي بشارة، "قضايا أخلاقية في أزمنة صعبة"، **مقالات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023/11/12، شوهد في 2023/11/22، في: https://tinyurl.com/5n9ymrmt

18 ينظر: بندكت أندرسون، **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**، ترجمة ثائر ديب (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).

19 عزمي بشارة، **الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 88 - 89.

20 ينظر:

Robert Cooper, *The Breaking of Nations: Order and Chaos in the Twenty-first Century* (New York: Atlantic Monthly Press, 2003).

21 بشارة، **مسألة الدولة**، ص 301. لا يتسع المقام هنا للتفصيل في هذا النقد، ويمكن العودة إلى: المرجع نفسه، ص 300 - 304.

هذا إذا استعملنا مصطلح الجماعة الدولية دلالةً على جماعة دول العالم جميعها. أما إذا استحضرنا مرة أخرى مصطلح "عائلة الدول"، الذي يعبرّ عن العائلة النواة من الدول الأوروبية، ثم من الدول الغربية لاحقًا، ثم أخذت في التوسع مع منتصف القرن العشرين؛ فيبدو حقًا أن الموقف الدولي من العدوان الإسرائيلي الحالي على غزة لا يعيد النظام الدولي إلى حالة الجماعة فحسب، بل إلى حالة العائلة.

ومع أن المجتمع الدولي ترجمة غير دقيقة للمصطلح السائد في الخطاب الغربي، بلغاته الأساسية المختلفة[22]؛ فإنني، بعد أن بيّنت وجه افتقاره إلى الدقة، سأستعمله في ما تبقى من المقالة كي أجنب القارئ أي التباس قد ينتج من إرباك ما استقرت عليه الترجمة العربية السائدة.

منذ 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 حتى الانتهاء من كتابة هذه المقالة، يحصي محرك البحث غوغل أكثر من 400 مليون مادة باللغة الإنكليزية ترددت فيها عبارة "على المجتمع الدولي أن يتصرف" The International Community Needs to Act[23]. لقد باتت مناشدة المجتمع الدولي والتوسل به والتكلم باسمه لغة مشتركة بين طيف من الفاعلين يتسع ويضيق بحسب الحالة. والإقرار بالسمة السياقية لاستدعاء المجتمع الدولي خطوةٌ لا بد منها. غير أن سمته السياقية هذه، أو اعتماده على السياق، هي ما يجعله دالًّا بلا مدلول ثابت يمكن المتكلمَ عن المجتمع الدولي، أو جمهورَه، أن يحيل إليه.

حين تدعو الصين المجتمع الدولي، في سياق العدوان الإسرائيلي الحالي على غزة، "للتصرف واتخاذ إجراءات عملية لمنع الصراع من الانتشار وتعريض الاستقرار في الشرق الأوسط للخطر"[24]، فهي تخاطب المجتمع الدولي من خلال الولايات المتحدة والدول الغربية الداعمة لإسرائيل. وحين تدعو روسيا المجتمع الدولي، بعد تحميل السياسة الأميركية المسؤولية، إلى حشد الجهود لوقف التصعيد، وتربط ذلك بدور محتمل لمجموعة "بريكس"، فهي تخاطب المجتمع الدولي من خلال الدول غير الغربية[25]. وحين تقول المملكة المتحدة، في سياق الحرب الروسية - الأوكرانية، إنها "ستواصل هي وشركاؤها [...] الوقوف متحدين في إدانة هذه الهجمات [الروسية] الوحشية"، وأن "المملكة المتحدة والمجتمع الدولي سيستمران في الالتفاف حول أوكرانيا والوقوف إلى جانبها"[26]، فهي تخاطب المجتمع الدولي من خلال الدول الغربية المناهضة لروسيا. وحين دافعت الولايات المتحدة عن تدخل حلف شمال الأطلسي في كوسوفو، من دون تفويض من الأمم المتحدة، قائلة إن "الفظائع التي ارتكبتها القوات الصربية غير مقبولة، وأن المجتمع الدولي كانت لديه مصلحة قاهرة في رؤية نهاية لها"[27]، إنما كانت تخاطب بالمجتمع الدولي جماعة الدول العابرة للأطلسي.

---

22 في الإنكليزية International Community، وفي الفرنسيةCommunauté Internationale ، وفي الألمانية Internationale Community، وفي الإسبانية Comunidad Internacional، وفي الإيطالية Comunità Internazionale؛ وليس International Society، Société Internationale، Internationale Gesellschaft، Sociedad Internacional، Società Internazionale، على التوالي.

23 يُقارَن ذلك بحوالى 18 ألف مادة أحصاها باحثان في شهر كانون الثاني/ يناير 2011. ينظر:
Berit Bliesemann de Guevara & Florian P. Kühn "'The International Community Needs to Act': Loose Use and Empty Signalling of a Hackneyed Concept," *International Peacekeeping*, vol. 18, no. 2 (2011), p. 135.

24 "Xi Urges Ceasefire in Gaza, Stresses Two-state Solution," *Xinhua*, 22/11/2023, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/wafwusyk

25 "Putin Says BRICS Could Help Reach Political Settlement in Gaza Conflict," *Reuters*, 22/11/2023, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/5c56u5bd

26 "Russia still Unaccountable for its Indiscriminate Attacks against Ukraine: UK Statement to the OSCE," 9/11/2023, accessed on 23/11/2023, at: https://tinyurl.com/2hxvs7ys

27 "Bulletin Broadfaxing Network, Inc., Clinton Outlines International Vision in Major Address, Calls for Large UN Role in World Affairs," *White House Bulletin*, 21/9/1999.

مقتبس في:

Ved P. Nanda, "Legal Implications of NATO's Armed Intervention in Kosovo," *International Law Studies*, vol. 57 (2000), p. 329.

تلك أمثلة من بين أخرى. وبُعيْد عملية طوفان الأقصى، استعملت دول عربية عديدة، في بياناتها الرسمية، لغة قريبة من اللغة التي تستخدمها الدول الغربية الداعمة للعدوان الإسرائيلي اللاحق على غزة (لكن في سياقات مختلفة، فقد تخلت عنها في سياق إدانتها للمقاومة الفلسطينية ودعمها المطلق لإسرائيل)؛ فرددت بعض الدول العربية الدعوة إلى ضبط النفس ووقف التصعيد من الطرفين، وتوسل بعضها الآخر بالمجتمع الدولي[28]. غير أن استعمال دول عربية اللغةَ نفسها التي تستعملها جماعة الدول الغربية لا يمكن تفسيره إلا بشعورها أن عليها أن تثبت أنها "لائقة" وتستحق "التسامح" من الدول الغربية، على حد تعبير رولز مرة أخرى.

بعد غزو العراق بسنتين، استضافت مجلة **السياسة الخارجية** منتدى، طرحت على المشاركين فيه سؤالًا واحدًا: "ما المجتمع الدولي؟". تباينت الإجابات، لكنها دارت في فلك فهمَين رئيسَين: أولهما أن المجتمع الدولي يمثل أحد أشكال المجموع الأخلاقي للبشرية، التي توجد بوصفها مرجعًا أخلاقيًا حتى لو افتقرت إلى التنظيم، وهذا فهم كوني للمجتمع الدولي؛ أما الفهم الآخر فهو أن المجتمع الدولي شكلٌ من أشكال الفاعل الذي يحظى بالقدرة على الفعل، وهذا فهم خصوصي للمجتمع الدولي، يحيل من خلاله إلى جماعة الدول الغربية، أو على نحو أوسع قليلًا جماعة الديمقراطيات الليبرالية، حتى لو تحدثت (وأحيانًا تصرفت) نيابة عن البشرية جمعاء[29].

تستعمل الولايات المتحدة، خاصةً، خطابَ المجتمع الدولي لإضفاء الشرعية على تصرفاتها خارج حدودها؛ لكنها تنفي وجوده ولا تأتي على ذكره حين لا تتوقع منه التصديق على تصرفاتها؛ وكذلك تفعل الآن حين تتحدث عن تحركاتها لدعم حق إسرائيل المطلق في الدفاع عن نفسها حتى مع ارتكابها جرائم حرب في غزة. وقد كتبت كونداليزا رايس، قبيل توليها منصب مستشار الأمن القومي الأميركي، قائلة إن السياسة الخارجية الأميركية، في إدارة جورج بوش الابن، "سوف تنطلق من أرضية ثابتة هي المصلحة القومية، وليس من مصالح المجتمع الدولي المتوهَّم"[30]. إذا كان ابتذال المفهوم قد وصل إلى هذا الحد مع رايس، فلا عتب إذًا على بعض المشاركين في منتدى مجلة **السياسة الخارجية** ممن رأوا أن المجتمع الدولي "نادٍ يضم أغنى دول العالم، لا سيما في أميركا الشمالية وأوروبا"، أو أنه يتشكل "أساسًا من الولايات المتحدة وأوروبا"، أو أنه "مجتمع زائف يتشكل من أغلبية عالمية غير ناضجة تحكمها نخب منظمة"، أو أنه "الولايات المتحدة وحلفاؤها وزبائنها"[31].

هكذا يصير المجتمع الدولي دالًّا بلا مدلول ثابت ومحدد، يمكن الجمهور أن يحيل إليه، حين يستدل عليه المتكلمون عنه، أو يناشده البعض التصرفَ، أو يتصرف آخرون باسمه. هو، من دون شك، بناءٌ خطابيٌّ Discursive Construction، بمعنى أنه يُشكَّل في الخطاب ويعاد تشكيله. لكن ذلك لا يعني أنه لا يتجسد أيضًا، أي يتنزل من فكرة إلى واقع. ويحدث ذلك، حين تتكلم وتتصرف باسمه قوة دولية، أحادية الطرف أم متعددة الأطراف. وفي هذه الحالة، علينا أن نتذكر سمته السياقية التي تجعل الحكم عليه إن كان مجرد فكرة، أو يمكن أن يتجسد في فعل، يعتمد على السياق الذي يجري فيه التكلم عن المجتمع الدولي أو باسمه. لكن أن يكون المجتمع الدولي دالًّا على مدلول ثابت ومحدَّد ومحدِّد لتوقعاتنا بشأن ما سيفعله أعضاؤه (بعضهم أو كلهم، لا يهم!)، فهذا لا يزال بعيد المنال.

---

28 ينظر: محمد حمشي، "عن الموقف العربي الرسمي من عملية طوفان الأقصى وما تلاها من عدوان إسرائيلي على غزة"، **مقالات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023/10/22، شوهد في 2023/11/22، في: https://tinyurl.com/2f3tuzwt

29 للمزيد عن الأجوبة التي قدمت في المنتدى، ينظر:

Buzan & Gonzalez-Pelaez, pp. 32 - 33.

30 مقتبس في:

Ibid., p. 33.

31 Ibid.

خاتمة: وُلد خديجًا وهو يحتضر وقد يدفن في أنقاض غزة؟

ليس المجتمع الدولي "مجتمعًا". بيَّنا في هذه المقالة أن ما يسمى الجماعة الدولية، ونسميها باللغة العربية خطأً المجتمع الدولي، لم تبلغ بعد حالة المجتمع، بل لقد بيَّنا أن موقفَ الدول الغربية وسلوكَها في سياق العدوان الإسرائيلي غير المسبوق على غزة قد يعبّران عن ردةٍ وتقهقرٍ نحو مفهوم قديم هو "عائلة الدول". وإذا اعتُبِرت تلك مبالغة، فلا بأس؛ لكن الآمال المعلقة على نضج الجماعة الدولية وتحولها إلى حالة المجتمع (الدولي)، بالمعنى الذي تستعمله العلوم الاجتماعية، باتت مجرد أماني. والواقع أن ملامح انتفاء حالة المجتمع الدولي ليست وليدة الآن. ما يحدث الآن ليس إلا تبديدًا لأيّ آمال يمكن أن يكون البعض قد نفخ فيها الروح في سياقات سابقة، آخرها الدروس التي علمتنا إياها عواقب تدهور منظومة التعاون الدولي في مواجهة خطر كوني لا يفرق بين دول ودول، هو جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد19-) بين عامي 2020 و2021.

بُعَيد نهاية الحرب الباردة، وحين كانت الولايات المتحدة في حاجة إلى تبرير تدخلها عسكريًا في دول أخرى، يذكر بشارة الكيفية التي جرى بها إحياء تراث هوغو غروتيوس في الفقه القانوني للحرب والسلم؛ ثم يشدد على أن غروتيوس "كان في الحقيقة متمسّكًا بمجتمع مسيحي عالمي، لأنه لم يدرك بعد فكرة 'المجتمع الدولي'"[32]. لقد كان فكر غروتيوس في جوهره، فضلًا عن استحضاره في السياق، "نكوصًا (وهذا ليس حكم قيمة) إلى ما قبل السيادة"[33]، أو ما قبل الحداثة بعبارة أخرى. والأهم من ذلك أن غروتيوس أنكر "حق المقاومة ضد الظلم"[34]. يخلص بشارة إلى أن "في عصرنا هذا الذي تهيمن فيه فكرة سيادة الدولة، وتُعدّ المعاهدات الدولية غير ملزمة إذا لم تتشكل قوة تفرضها، وفي غياب ثقافة وقيم مشتركة، لا يسري القانون في ما يسمى المجتمع الدولي؛ فهو ليس 'مجتمعًا'، وما يسود فيه هو حالة الطبيعة"؛ وإلى الآن، "لم ينشأ مجتمع دولي لا يحترم سيادة الدول فحسب، بل يتوفر في الوقت ذاته على قواعد متوافق عليها"[35]. وهذه القواعد والمعايير، كما رأينا، الناتجة من رابطة بين تعاقدية بين الدول الأعضاء، شرط لازم لتجسد حالة المجتمع الدولي.

الخديج، في **معجم الدوحة التاريخي للغة العربية**، "الولد تلقي به أمه قبل أوانه"؛ وفي **معجم المعاني**، "العضو من النبات أو الحيوان الذي لم يكتمل خلقه أو اكتمل خلقه ولا يؤدي ما خُلق له". وهو من الخداج بمعنى النقصان، ومنه الحديث النبوي "كل صلاة لا يُقرأ فيها فهي خِداج".

لا يمكننا وضع أيدينا على فترة تاريخية محددة ولد فيها شيءٌ اسمه المجتمع الدولي. لكن، إذا افترضنا بدايةَ التكلم عنه لحظةَ ولادته، سواء أثناء فترة الحرب الباردة أو حتى بُعَيد نهايتها، فلا بد أنه ولد خديجًا قبل أن يكتمل خلقه، وإن حاجَّ البعض باكتمال خلقه، فلا بد من أنه ولد وهو غير قادر على أن يؤدي ما خُلِق له. وللمفارقة، يتمسك المتكلمون عنه في الغرب بتسميته "جماعة" لا "مجتمعًا"؛ وإنه كذلك حقًّا. غير أن موقف الولايات المتحدة وحليفاتها الغربية وسلوكها، في سياق العدوان الإسرائيلي غير المسبوق على غزة، يعمّق الخشية من أن تكون حتى "جماعةُ الدول" الغربيةُ مهددةً بالنكوص والتقهقر نحو حالة ما قبل الحداثة فيها أشد، هي "عائلةُ الدول" الغربيةُ؛ وللدقة "عائلةُ الدول" الغربيةُ عبر الأطلسية. وهكذا تتسمى، دلالةً على انغلاق وشائجي على دول أميركا الشمالية وأوروبا ومن تُقرر أنه يشبهها، ومن ثم استبعاد من هم دون ذلك.

وُلد المجتمع الدولي خديجًا، ويُخشى أنه يحتضر وسيدفن في أنقاض غزة، مع غيره من أطفالها الخُدَّج؛ ودمه، مثله مثل دمائهم، في أعناق من يمسكون بزمام السلطة في "عائلة الدول" الغربية عبر الأطلسية.

---

32 بشارة، **مسألة الدولة**، ص 297.

33 المرجع نفسه.

34 المرجع نفسه، ص 297 - 298.

35 المرجع نفسه، ص 298.

المراجع

العربية

أندرسون، بندكت. **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**. ترجمة ثائر ديب. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

بشارة، عزمي. "قضايا أخلاقية في أزمنة صعبة". **مقالات**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2023/11/12. في: https://tinyurl.com/5n9ymrmt

_____. **مسألة الدولة: أطروحة في الفلسفة والنظرية والسياقات**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.

_____. **الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

_____. **المجتمع المدني: دراسة نقدية**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017[1996].

حمشي، محمد. "عن انحطاط النقاش القانوني بشأن مسؤولية حماية المدنيين في غزة". **مقالات**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2023/11/5. في: https://tinyurl.com/3z555hnf

_____. "عن الموقف العربي الرسمي من عملية طوفان الأقصى وما تلاها من عدوان إسرائيلي على غزة". **مقالات**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2023/10/22. في: https://tinyurl.com/2f3tuzwt

رولز، جون. **قانون الشعوب**. ترجمة محمد خليل. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2007.

الأجنبية

Albert, Mathias, Lothar Brock & Klaus Dieter Wolf (eds.). *Civilizing World Politics: Society and Community beyond the State*. Lanham: Rowman and Littlefield, 2000.

Bliesemann de Guevara, Berit & Florian P. Kühn. "'The International Community Needs to Act': Loose Use and Empty Signalling of a Hackneyed Concept." *International Peacekeeping*. vol. 18, no. 2 (2011).

Brown, Chris & Kirsten Ainley. *Understanding International Relations*. 3rd ed. New York: Palgrave Macmillan, 2005]1997[.

Buzan, Barry. *From International to World Society? English School Theory and the Social Structure of Globalisation*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

Buzan, Barry and Ana Gonzalez-Pelaez. "'International Community' after Iraq." *International Affairs*. vol. 81, no. 1 (2005).

Cooper, Robert. *The Breaking of Nations: Order and Chaos in the Twenty-first Century*. New York: Atlantic Monthly Press, 2003.

Kleinschmidt, Harald. “The Family of Nations as an Element of the Ideology of Colonialism.” *Journal of the history of International Law*. vol. 18 (2016).

Nanda, Ved P. “Legal Implications of NATO's Armed Intervention in Kosovo.” *International Law Studies*. vol. 57 (2000).

Rawls, John. *The Law of Peoples*. Cambridge: Harvard University Press 1999.

Tönnies, Ferdinand. *Community and Society (Gemeinschaft und Gesellschaft)*. New York, NY: Harper and Row, 1963 [1887].